حفظ الدين والأخطار المحدقة به

للأستاذ / أحمد ولد النينى
وزير الشئون الإسلامية والتعليم الأصلى
موريتانيا

اتفقت كل الشرائع السماوية على ضرورة حفظ ست كليات هى النفس، والعقل، والدين، والنسب، والعرض، والمال. ولم تخالف الشرائع والفلسفات الأرضية فى شىء من ذلك.

وسنعالج فى عرضنا هذا إحدى هذه الكليات الضرورية وهى حفظ الدين، من خلال محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة الجوهرية:

* لماذا اعتبر الإسلام حفظ الدين ضرورة؟

* وماذا سن لحمايته؟

* وما هى الأخطار المحدقة به اليوم؟

* وما سبل مواجهتها؟

إلى غير ذلك من الأسئلة والإشكالات فى ثنايا هذه البحث سعيًا للإجابة عن أسئلته الجوهرية هذه.

وسنفرد للإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة مطالبًا خاصًا على أن نجمل المطلبين فى مبحث تحت عنوان " ضرورة الدين وآليات حفظه "، ونجمل المطلبين الأخيرين فى مبحث عنوان " الأخطار المحدقة بالدين وسبل مواجهتها ".

المبحث الأول
ضرورة الدين وآليات حفظه

المطلب الأول: لماذا كان حفظ الدين ضرورة؟

الإجابة عن هذا السؤال تتطلب ــ أولاً ــ الإجابة عن ثلاثة أسئلة أساسية، هى:

ــ ما حقيقة الإنسان باعتباره المستهدف بالدين؟

ــ وما مهمته فى هذا الوجود؟

ــ وما حاجته إلى الدين فى أداء وظيفته؟

أولاً : ما هو الإنسان؟

خلق الله الإنسان مركبًا من طبائع العالم من حوله بكل تناقضاتها، فكان ترابى البدن يحتاج إلى الطعام والشراب والملبس والمسكن وينجذب إليها بكل عفوية...

وكان حيوانى الغرائز بأكل ويتمتع ويفترس.. وربما افترس قويه على ضعيفه.

وكان جنى النزغات حين ينهمك فى الفتنة والإغواء والوسوسة بالإفساد بين الناس فيما بينهم وفيما بينهم وبين ربهم..

ثم كان الإنسان ملائكى القيم حين يركن إلى العبادة والتبتل ويعرف عن زخارف الدنيا وحطامها..

وبطبيعة الحال تصطرع هذه العوالم كلها داخل الإنسان، وتظل فطرته الربانية السليمة تجابه طرفى الإفراط والتفريط فى هذه المتناقضات، ويظل الإنسان مهما غلب عليه بعض تلك الخصائص إنساناً يختلف عن ذلك المخلوقات كلها.

ثانيًا ـ ما مهمة الإنسان فى الوجود؟

لقد أثبت القرآن الكريم للإنسان مهمتين فى هذا الوجود، هما عبادة الله، وعمارة الأرض.

وقد دل على ألأولى قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ (الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧)، فاستخدم القرآن أسلوب الحصر تأكيدًا على أهمية هذه الوظيفة فى حياة الإنسان، حتى لكأنها الوظيفة الوحيدة له والغاية القصوى لوجوده، وهى كذلك باعتبار الوظيفة الثانية جزءًا منها وخادمة لها.

وقد صرح القرآن الكريم بالوظيفة الثانية فى قول الله تعالى: **وَإِذْ** ﴿ **قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة: ٣٠)،. وفى قوله: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ (هود: ٦١).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الوظيفتين معًا بلفظ الأمانة فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وإذا كان القرآن الكريم قد صرح بأن الوظيفة الأولى يخاطب بها الإنس والحن جميعًا، فإنه قد صرح بأن الوظيفة الثانية من خصوصيات الإنسان وحده تكليفًا وتشريفًا.

ثالثا ـ ما حاجة الإنسان إلى الدين فى أداء أمانته؟

إذا كان الإنسان كما بينا يتركب من جزأين أساسيين؛ جزء مادى طينى،وجزء معنوى روحى.. وكان الطينى يحتاج فى استمراريته واستقامة حاله إلى الارتباط بالطينيات مأكلا ومشربًا وملبسًا ومسكنًا.. فإن جانبه الروحى يحتاج فى صلاحه واستقامته إلى الارتباط بالعالم الروحى من خلال معارج العبادة تسبيحًا وتقديسًا، ولا يمكن أن تستغنى الروح أبدًا عن وجود معنى ما من العبادة والتنسك، فإن اهتدت إلى المعنى الصحيح فذاك، وإلا اخترعت مقدسات ومعظمات من تلقاء نفسها لتسد بها حاجتها إلى التدين تحتاجه كما يحتاج البدن الطعام والشراب.

وإذا ارتبطت الروح بغير خالقها آلت إلى الضمور والضياع، وآل صاحبها إلى النكد والتعاسة.. مصداقا لقول الله جل من قائل: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ **(طه:١ ٢٤)**.

ومن هنا ندرك أن أزمة العالم الإلحادى بشكل مطلق، والعالم الإسلامى بمستويات دون ذلك، ناتجة عن إهمال الجانب الروحى بشكل كلى، أو تغذيته بغذاء لا يسد خلته ولا يلبى حاجته.. مما يترك الروح فى حالة من الفراغ وفقدان الهدف هى ما يفسر موجات القلق النفسى والنكد الأسرى... وحوداث التشرد والانتحارات... وفقدان معنى الإنسانية...

ثم إن الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها، والتى تجعله خلاصة للعوالم من حوله تفرض عليه صراعًا داخليًا بين مكوناته يعانى منه أكثر مما يعانى من صراعه مع مكونات الطبيعة من حوله، مما يجعل اسيعابه لذاته وتمكنه منها أصعب وأقسى من استيعابه لبيئته وبسط سيادته عليها.

ولهذا كله فإنه بحاجة إلى ما يوفر عليه بعض الجهد والوقت ويؤمن له انطلاقة آمنة من قاعدة متينة نحو مهمة الاستخلاف التى تقتضى منه مكابدة إعمار الأرض دفعًا للأضرار وجلبًا للمنافع.. ولن يتأتى له ذلك إلا بوحى ربانى يقوى صلته بالله ويبصره بكنه نفسه، وينير له الطريق الموصلة إلى هدفه.. حتى يكون من: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد: ٢٨).

المطلب الثانى: ما الذى سنه الإسلام لحفظ الدين؟

لقد اتخذ الإسلام جملة من الإجراءات الاحتياطية والعلاجية والردعية لحماية الدين وضمان استمراريته فى الحياة العامة والخاصة، ونجمل أهم آليات التى وضعها لذلك فيما يلى:

أولاً ـ بعثة الرسل: إن الفطرة السليمة يمكن أن تهدى صاحبها إلى الحق وتعرفه بربه من

خلال آثار فعله فى الكون، ولكن الله تبارك وتعالى رحمة بالبشرية وحفظًا للدين فى حياتها بعث الرسل تباعًا ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ **(الإسراء: ١٥)**.

ثانيًا ـ التمكين للإسلام: لما شاء الله تبارك وتعالى أن يكون الإسلام آخر الأديان، اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يتكفل بحفظ القرآن الكريم من التبديل والتغيير، وأن يضمن للأمة تجديد الدين وإحياء ما اندرس منه كما فى الحديث الصحيح: [**إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينه**] [١].ومن هذا التمكين ما ورد فى الحديث الشريف: [**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق. لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتى أمر الله وهم كذلك**] [٢]، ومنه كذلك عصمه إجماع الأمة.

ثالثًا ـ سن الاجتهاد: حتى يظل الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان، حيث قامت الشريعة الإسلامية على ثوابت وكليات قطعية لا تتغير ولا تتبدل مهما اختلف الزمان والمكان والإنسان لتحفظ للدين خصوصيته وتعدد ماهيته وحقيقته، وعلى متغيرات فرعية ظنية تتجدد بحسب تغير الأحوال والأعراف حتى تضمن للشريعة مرونة تسمح لها بتلبية الحاجات المتجددة، فلا يجد المتحاكمون إليها حرجًا مهما طال الوقت وتجددت الظروف.

رابعًا ــ الدعوة إلى الله: كما اقتضت حكمة الله تعالى أن يكف أفراد هذه الأمة بما كلف به الرسل من تبليغ هذه الرسالة الخاتمة ونشرها كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾ (يوسف: ١٠٨).وكما قال ﷺ: [**بلغوا عنى ولو آية**] [٣].

خامسًا ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: وهو صمام الأمان لبقاء الدين فى الأمة غضًا طريًا، وهو السمة المميزة لمؤمنين ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾ **(التوبة: ٧١)**. وهو مصدر خيرية هذه الأمة ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾ **(آل عمران: ١١٠)**.

سادسًا ـ التربية: وبها تضمن الأمة استمرارية الدين من خلال توريثه للأجيال المتتالية، قال رسول الله ﷺ:**[ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو بمحسانه]**[٤].

سابعًا ـ منع الفتنة: قال تعالى ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ** ﴾ **(الأنفال:٣٩)**.وقال رسول الله ﷺ: **[من أحدث فى أمرنا هذه ما ليس فيه فهو رد]** [٥] ولعل من

أكد ما فى هذا الباب منع حملات التنصير والتهويد والإلحاد.

ثامنًا ـ حد الردة: قال رسول الله ﷺ: **[من بدل دينه فاقتلوه]** (٦). وقال: **[لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ﷺ إلا بإحدى ثلاث: الثيب بالزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة]** (٧).

تاسعًا ـ الجهاد: وهو ذروة سنام العمل الهادف إلى حماية الدين واستمراريته فى الحياة العامة والخاصة للناس، حيث شرع الله فى الجهاد بذل النفس والمال وهما من الكليات الضرورية الواجب حفظها لحماية هذه الكلية باعتبارها أهم وأشرف حسب التراتبية المجمع عليها عند أهل العلم.

وإذا تأملنا هذه الآليات التسع وجدنا أن الأوليين منها قد تكفل الله بهما، إذ لا يمكن أن يحققهما غيره سبحانه وتعالى، وأن الثالثة مختصة بالعلماء المتبحرين، وأن الثلاثة الوسطى مطلوبة من عامة المسلمين على سبيل الكفاية فى أوليها والعينية فى ثالثتها، وأما الثلاثة الأخيرة فيخاطب بها أئمة المسلمين وجماعتهم جون عامتهم وآحادهم.

المبحث الثانى: الأخطار المحدقة بالدين وسبل مواجهتها

المطلب الأول: تشخيص الأخطار المحدقة بالدين

قديمًا عدد العلماء للدين أعداء منها الشيطان، والنفس، والهوى، والأهل، وأصدقاء السوء، وحب الرياسة، والحرص على المال... وغيرها، وكلها ثغور يمكن أن يؤتى الإنسان منها فى دينه إذا لم يأخذ حذره ويتخذ لدينه الاحتياطات اللازمة لحمايته.

ولنا اليوم أن نعيد تصنيف أعداء الدين والأخطار المحدقة به حسب الجبهات الأربع التالية:

أولا ـ الجبهة الخارجية التقليدية (الزندقة والإلحاد):

الإلحاد فى أخص دلالاته الإصلاحية هو العداء المطلق المعلن لمبدأ الدين مهما كان نوعه، ولعل أشنع ما عرفت البشرية منه هو ما شهده العالم فى القرن الماضى مع ظهور الفلسفة الشيوعية التى تلخص عقيدتها فى المقولة المأثورة عنهم " **لا إله والحياة مادة** "، ولا يزال ينخدع بها إلى اليوم ــ رغم انهيار المعسكر الذى يتبناها ــ بعض الأغرار من ناشئة الأمة من هنا وهناك.

أما الزندقة فهى فى أخص دلالاتها إظهار الدخول فى الإسلام مع إبطان الكفر به قصد الدس له والمكر به من الداخل، وقد عرف التاريخ الإسلامى موجات من هذه الظاهرة فى فترات مختلفة لعل أبرزها ما حصل إبان عصر تدوين السنة فاستطاع أهله أن يدسوا فى كتب الحديث كثيرًا من الأكاذيب والأباطيل، لكن الله قيض لها من أعلام الأمة من كشف أمرها وكفى المسلمين شرها.

ثانيا ـ الجبهة الخارجية المعاصرة (العلمانية والعالمة):

تعنى العلمانية عند المعاصرين مبدأ فصل الدين عن الدولة، مما يعنى تهميشًا للدين وإقصاء له من الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، وحصرًا له فى زاوية الأحوال الشخصية.

وهى بدعة ظهرت مع مطلع القرن الماضى فى الغرب كردة فعل على جمود الكنيسة وسوء أداء رجال دينها فى الميدان السياسى والعلمى.

ثم أريد لهذا الأمر أن يصدر إلى العالم الإسلامى رغم عدم توفر الظروف الموضوعية لذلك، حيث كانت التجربة الإسلامية حافلة بالعطاءات النافعة فى كل الميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية.

أما العولمة فإنها تعنى فى أخص مدلولاتها صهر العالم كله فى بوتقة واحدة تحكمها رؤية القطب المتغلب وخصوصياته ورواه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والقيمية.

ثالثا ـ الجبهة الداخلية المفرِّطة (الخلاعة والانحلال):

ويعنى هذان المصطلحان التملص من ربقة التكاليف الشرعية والتحرر من الوازع الدينى، ويرتبط مصطلح الخلاعة بشكل أساسى بالنواحى الأخلاقية كالعرى والإباحية الجنسية استعمال المخدرات والانهماك فى الأغانى الماجنة ونحو ذلك.

فى حين يتسع مصطلح الانحلال لجوانب أخرى كترك الواجبات الدينية من صلاة وصيام ومنع للزكاة.. وكعدم الاعتناء بالمنظومة التشريعية والشعائرية المميزة للإسلام، كالتعامل بالربا والجرأة على العقود الفاسدة.

وقد ظهر فى بعض البلدان الإسلامية والجاليات المسلمة فى البلدان الأخرى مصطلح يشرع هذا النوع من الممارسات تحت عنوان " **المسلمون النظريون** " أو " **المسلمون غير الملتزمين** ".

ولا نريد هنا أن ننفى عنهم صفة الإسلام مهما ارتكبوا طالما نطقوا بالشهادتين، ولكننا نؤكد أن حقيقة إسلامهم لم تحصل، وأن هذه الجبهة ليست من أقل الجبهات خطورة على مستقبل الإسلام.

رابعًا ـ الجبهة الداخلية المفرطة: (الغلو والتعصب):

ويعنى هذان المصطلحان المبالغة الزائدة فى أمر من أمور الدين، ويختص الأول بما يتعلق بالأخذ بالنصوص والقطعيات المتفق عليها والسعى لتطبيقها على وجه يجلب حرجًا قد أقر الإسلام رفعه تيسيرًا ورحمة، أو يوقع فى محظور أولى بالترك من الأمر المراد تحصيله.

ويختص الثانى بما يتعلق بالمبالغة فى اعتبار أحد الأقوال الاجتهادية المتساوية أو المتقاربة فى جزئية ما، على وجه يلغى غيره من الأقوال لا على أساس برهان علمى أو دليل شرعى يقتضى إلغاءها.

ويمكن القول إن من مخاطر الغلو البارزة إهمال النظر فى الواقع وفى مآلات الأفعال وعدم الموازنة بين المصالح المستجلبة والمفاسد المستدفعة.

وأن خطورة التعصب تتجلى فى الجمود وعدم التجديد مما يوقف تطور النظر الاجتهادى عند ما وصل إليه العقل الإسلامى فى فترة معينة والاكتفاء بترديد ما أنجزه فيها بصرف النظر عن التطورات المتلاحقة لواقع من حولنا.

وتشترك الجبهتان الداخليتان فى كونهما عدولاً عن الوسطية إلى أحد طرفى الإفراط والتفريط، وبذلك فإنهما يمثلان وجهى عملة التطرف المفضى حتمًا إلى الإرهاب فعلاً كان كما هو الشأن فى حال الإفراط أو ردة على حالة التفريط.

كما تشتركان فى تشويه الإسلام من الداخل، وتقديمه للعالم بصورة تستوجب النفور منه والإعراض عنه.

المطلب الثانى: سبل مواجهة الأخطار المحدقة بالدين:

يمكن أن نلخص سيل مواجهة الأخطار المحدقة بالدين فى عبارة واحدة وهى العودة الجادة إلى الآليات التى سنها الإسلام للحفاظ على استمرارية الدين فى الحياة العامة والخاصة للأمة أنظمة وأفرادًا.

ويمكن أن نفصل أكثر فنقول إن الأمة اليوم بحاجة إلى تحصين أجيالها من خلال تربية مدروسة يشترك فيها الآباء والمدرسون والإعلاميون والسياسية والمثقفون والمجامع العلمية، ودور النشر... حتى نتمكن من تحصين أجيالنا من مخاطر المسخ والتميع والأسلاب التى فى التخطيط لها كل الجبهات الخارجية وبعض الجبهات الداخلية المشار إليها أنفًا.

كما أننا بحاجة إلى أن نحيى ثقافة الحوار الهادئ المنصف، وننشر أدبيات الخلاف العلمى، وننمى عادة قبول الرأى الآخر.. حتى لا تعبث بنا مظاهر التعصب والغلو، فنصبح من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، أو نكون من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرًا كل حزب بما لديهم فرحون.

وبعبارة أوجز علينا أن نجمع بين حسنتى الانفتاح والتميز، ونتقى سنتى الانغلاق والتميع.

وخلاصة القول: هى ما نجمله فى النقاط التالية:

١ــ أن الدين شىء أساسى فى حياة الإنسان، وليس أمرًا ثانويًا ولا كماليًا، فلا يمكن لروحه أن تستغنى عنه، كما لا يمكن لبدنه أن يستغنى عن الغذاء، وأن الروح إذا لم تتغذ بالدين الصحيح تغذت بمعتقدات ومقدسات فاسدة فانعكس ذلك نكدًا وتعاسة على صاحبها.

٢ــ إن الإسلام اليوم يواجه جبهات خارجية كالإلحاد والزندقة والعولمة والعلمانية، وجبهات

داخلية كالخلاعة والانحلال والغلو والتعصب.

٣ــ أن مواجهة هذه الأخطار تستلزم العودة الجادة إلى الآليات التى سنها الإسلام للحفاظ على استمرارية الدين فى الحياة العامة والخاصة للأمة وأفرادها.

الهوامش:

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك برقم ٨٦٤٢.
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.
(٣) رواه البخارى برقم ٣٣٨٦.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه البخارى برقم ٢٩٥٠.
(٧) أخرجه الإمام أحمد برقم ٣٦٢٣، وهو عدد أصحاب السنن.